



مختارات الإمام أبي الحسن الندوي - رحمه الله - في أدب العرب، كما يشهد بذلك الأديب الشيخ علي الطنطاوي، وكفى به شاهداً: «أجود كتب المختارات، وأجمعها لفنون القول وألوان البيان»^(٢) على حين أعوزت كثيراً من لداتها الأخرى.

وقد أشار الندوي إلى النقاط التي جعلته يضع هذا الكتاب في (المقدمة) التي استهل بها كتابه، فهي تعطينا مؤشرات ضافية عن الندوي الناقد، وعن ريادة النقد الموضوعي لمدرسة الأدب الإسلامي. وقليل ما وقعنا على مادة مفردة، تنوه بالندوي في آرائه النقدية بصفة متميزة إلا نتفا جاءت شذراً مذر.

فالمقدمة فضلاً عن أنها تشكل مدخلاً إلى المختارات التي وضعت في الكتاب، تمثل فاتحة للأدب الإسلامي، ونافذة إلى الأسس النقدية التي قام عليها صرحه الشامخ.



أبو الحسن علي الندوي رائد النقد الموضوعي للأدب الإسلامي

دراسة تحليلية في مقدمة^(١) كتابه مختارات من أدب العرب

عبد الوهاب الديروي - باكستان —

غضونها، وتلك البلاغة الطبيعية التي تطالعنا من فقراتها، وتنتقل بنا من حكم إلى حكم، ومن قضية إلى قضية رويداً رويداً، وفي هدوء تام، حتى تخلص منها إلى نهاية فاصلة للحكم، مقنعة للعقل، مؤثرة في القلب.

هذه واحدة، والثانية: أن المقدمة في الوقت نفسه تمثل القاعدة: التنظير قبل التطبيق،

إذاً أول ما تفرض علينا نفسها لنأخذها بالتحليل والدراسة.

«عناصر عامة في المقدمة»

ثمة عناصر متداخلة تحويها المقدمة، تطلب إلينا الحديث عن نفسها، ولكن الذي يجلب الانتباه أولاً هي تلك العاطفية العامة السارية في مضمونها، وتلك العصامية الأدبية الناقدة التي تترقرق أجلى ما يكون في

ولكننا - وقبل الدخول في غمار ما اختار - نساءل: هل أودع المؤلف هذا الكتاب شيئاً من عمله الإبداعي قبل أن يودعه أعمالاً ومقالات لغيره؟

والجواب سهل ميسور؛ فإن سماحته المتواضعة وإن لم ترض أن تعلق بنفسها إلى صفوف الأدباء، فإن المقدمة ذاتها خير مساهمة، وقعت منها بمكانها اللائق، فهي

وبالتالي فإنها تنظر لنا أساسيات مدعى الندوي كما يرتئها، وينشرها على بساط البحث، لتكون مدخلاً إلى المادة الموضوعية المطروحة على صفحاته.

والثالثة: أنه في مقدمته يقيم دعوى تكاد تكون دليل نفسها- كما يسميه أهل المنطق- ولا حذر. فإن كانت الدعوى منطقية في مضمونها، فإن المجموع من شكلها ومحتواها المضموني هو الآخر يقوم عليها دليلاً، هذا طبعاً إذا أغفلنا لساعة التمسكات الظاهرة التي يسردها لنا المقدم العلامة -رحمه الله- في ثنايا مقدمته على النحو التدريجي الدائب.

«رحلة أدبية انتقائية»

إن سماحة الشيخ الندوي -رحمه الله- بحافز غيرته على ضياع الأدب الحقيقي، يشد رحلة أدبية نقدية انتقائية، ثم يعود بنا إلى جذور التاريخ الأدبي في تراثنا الإسلامي على امتداده الطويل الشامل، حيث يقضي ساعات وساعات في مكتبات العلم والأدب، والفن والذوق، وبين أسفار المعرفة، وركام هائل من الثروة الأدبية التي خلفها لنا آباؤنا، ينفض عنها الغبار الذي طالما علاها، ويحريها، ويستخرج منها جواهرها ويودعها كتابه.

وهي - المختارات - بمفردها واحدة واحدة بمكانتها التي لها، ولكنها في مجملها تحمل كذلك دلالات متعددة، تتمخض لنا عن أمور ذات بال، منها:

- حذق أدبي عظيم، مشهود به لصاحبه، ويدل دلالة واضحة على المجهود الحميد الذي كرّسه، والخبرة التي يمتلكها. - ولكن لا يكفي المجهود ولا الخبرة وحدها، وهنا يأتي الذوق الذي حظي منه أديبنا الرائد بوافر الحظ، وقد تلاقى الفن والذوق فيه، حتى كان منه هذا الكاتب وهذا الطبع.

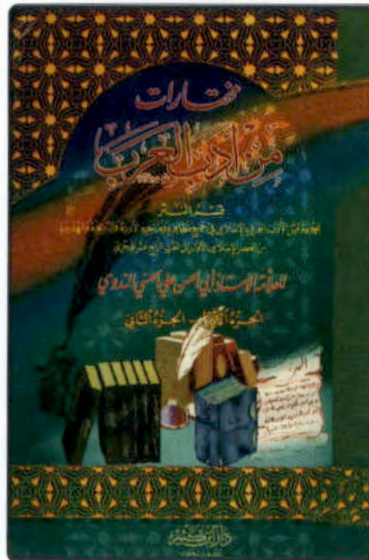
- إنها تمخضت لنا كذلك عن فهم عميق للطبيعة الأدبية، وميلها إلى الحقيقة والواقعية، وينم عليه هذا الاستيعاب الواعي

لمذاهب النثر العربي على مر القرون الطوال، وقد عاشها خلال هذه الرحلة الطويلة والشاقة في أن، حتى وقف منها في نهاية المطاف على مفترق من الأدبين: «الطبعي والصناعي»، ومن هنا يسخر لنفسه أدوات الفن والأدب وآلياتهما، والتراث العربي الذي استلهمه، ليخلص بهما إلى ترجيح الراجح بأوليائه تلك.

«عوامل النقد الأدبي عند أبي الحسن الندوي»

وعوداً على بدء، فإن من الضروري هنا أن نشير إلى العوامل الرئيسية التي قد باتت بمرعى من أديبنا الرائد في هذا العمل النقدي والانتقائي، باعتبارها مرتكزاً للعمل، ومبرراً لوضع الكتاب الإسلامي في الوقت نفسه.

عامل النوعية: وتكاد تكون أهم من كل ما عداها. وتعد اليوم ثلثة كبيرة في مناهج التاريخ للأدب العربي، وظهر ذلك في مدى اعتناء الندوي بالنوعية في الاختيار، فقد التزم خط التقسيم الموضوعي في وضع المختارات، ولم ينتهج الخط الزمني المسلسل، وبذلك فإنه يعطينا





من رتبة العرض التاريخي في السرد والوضع، وقد ظل هو المثل الأعلى لدى رجال التاريخ الأدبي، انسياقاً وراء الأدب العالمي المنهج تاريخياً، مع أنه يخترم جوانب كبيرة الشأن، مما يجب مراعاتها في واقع الأدب جمعاً وتدويناً، فرب أدب عصر واحد يتقاطع نوعياً، لأن نشأة الأدب ونماءه وازدهاره كالطفل في كل هؤلاء، لا يقدر بطبيعته أن يقفز إلا قفزة نوعية من تقاليد طويلة المدى إلى صنف آخر منه، كما هو الرأي عند بعض الأدباء في العصر^(٣).

إن الندوي يضع لنا نموذجاً آخر من نوعه في التاريخ، هو الأحق بالقبول والاتباع، وأن يصاغ في ضوءه الأدب صياغة جديدة، لأن الأدب لا يرتبط بالعصور والأزمان، بل يهب بعيداً عن الأحداث التاريخية، ولا يلمسها إلا في حاجة لا يغني عنها، إنه يهب حول العواصف السياسية لا عليها. ومن هنا فإن «المختارات» تهتم في سياقتها بالنوعية، أو قل بفضول الأدب العربي على مختلف ألوانه، من معجز، إلى وعظ، إلى وصف، إلى رسائل، وتاريخ، وإلى آخر ما مضى فيها كتاب الندوي.

عامل الزمان والمكان؛

علماً منا - وفي الدرجة الثانية

«طبقات فحول الشعراء» طبقة خاصة لشعراء فن الرثاء.

ومن هذا المنطلق فإن الندوي إذا لم يفته من جهة أن يضع في اعتباره الأدوار التاريخية من العصر الإسلامي الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري، فإنه من جهة أخرى - وهي الأولى - انتهج في انتقائه المنهج النوعي الحكيم، ولا أدل على ذلك من الجملة المعرفة التي في أعلى الغلاف: «مجموعة تمثل الأدب العربي في جميع مظاهره ومناحيه الأدبية والتاريخية والتذهيبية...»^(٦) ولذلك؛ فإذا استعرضنا المختارات واحدة بعد واحدة، نجد هذه السمة ماثلة للعيان، والحديث فيها يطول، وسنأتيه لاحقاً إن شاء الله.

ويجمل بنا ونحن نؤكد على أهمية النوعية أن نعرج على ما يراه أديب العربية الكبير علي الطنطاوي في هذا المنظور، يقول: وتقسيم العصور الأدبية تبعاً للعهود السياسية - وهو المتبع في تدريس الأدب في المدارس - تقسيم لا يقوم على أساس؛ لأنه ليس بين السياسة والأدب تشابه ولا ارتباط، ولا تصح النسبة بينهما طرداً ولا عكساً، فربما ازدهر الأدب بازدهار السياسة

- أن تعامله مع نوع الأثر الأدبي لم يفهل «عامل الزمان والمكان» كما يصطلح عليه أهل النقد، إنه لم يبلغ اعتبارهما فعل بعض المعاصرين الذين ذهبوا إلى هذا الرأي^(٤) إلا أن الاعتداد بهما إنما جاء تبعاً وليس رأساً، وما كان للشيخ الندوي أن يغفلهما على طول الخط، لأن العامل قد يترك أبعد الأثر على موضوعات النشر



علي الطنطاوي

العربي، وثمة دلالات تاريخية تبين كيف أن العرب أحسوا أثر البيئة في الشعر والنثر، وكيف أن مبدأ الزمان والمكان أسهم في تقويم الأدب عندهم، ولكن كفة التقسيم الموضوعي التي تبدو راجحة، وفضلاً عن الحديث فإننا نجد في القديم: مثل ابن سلام الجمحي (ت: ٢٣١هـ) الذي يعده بعض الباحثين «رائد النقد الموضوعي»^(٥) قد جعل في كتابه

كصدر العهد العباسي، وربما تأخر بتقدمها، كالعهد الإسلامي (الأول).

وخير من ذلك أن ندرس الأدب تبعاً للمذاهب الأدبية، فلم لا نكشف في الأدب العربي عن الصفات المتشابهة في طائفة من الشعراء، فنجعلها مذهباً؟ فيكون في الغزل المذهب العذري، والمذهب القصصي، والمذهب الصوفي....^(٧)

عامل الروح والعاطفة:

هو العامل الرئيسي الذي يتجلى أعظم ما يكون في رؤاه النقدي، ويملكه زمام الريادة الأدبية، وهو الذي أدى بدوره إلى مذهب جديد في الأدب الإسلامي. وما كان لرجل مثل الندوي أن يتناساه، ولا يتعامل معه، كيف وهو منذ تفتح وعيه على الحياة، يجد نفسه قبالة بيئة ذات توجه إسلامي، بما استطاع أن يحظى بأوفر حظ من المعاناة الوجدانية الأدبية من الوجهة الإسلامية، وعليه فإنه لم يشق طريقاً وسط الطرق المتشعبة إلى الأدب الإسلامي عفواً، ولم يقدم عليه مباشرة، بل عايشها تجربة من قبل بما يسمونها «المعايشة التاريخية»^(٨) وتبلور معه خلالها إحساس متزايد بتفعيل العامل

الديني العاطفي، ونفس الشيء يفرض على الندوي نفسه في السياق المنهجي للمختارات، بينما تبقى العوامل الأخرى^(٩) إلى جانبه تسير على الهوامش، ولم يفعل هذا الأخير عمله نظرية صرفاً أملاها عليه عقله الواعي وحسب، ولكنما كانت روحاً سرت منه في نفسه وشرائيته، لا فكاك بينهما، استقاها من ثدي الرسالة، وتوارثها من سلالة السيادة، بما كان لها من أثر في بنات أفكاره وعباراته - شاء أم أبى - فطرة الله التي فطر عليها. فبينما يمضي في الحديث في مقدمة المختارات عن الأدب أدباً، وبينما يفرش له أصوله وقواعده من الرؤية العامة، وبينما ينقده بشتى أصنافه نقداً أدبياً وموضوعياً، إذا هو يمزجه في كل أولئك بتلك الروح الإيمانية، والإحساس الروحاني، وإذا به يدر عليه من قلبه النابض بالحب والعاطفة، وعقله الواعي لمعاني الإيمان والإسلام وحسه المرفه بالنفاذ الصادق.

وأعظم ما يثير إعجاب نفس مؤمنة متذوقة، وما عساه أن يكون خرقاً ملموساً ذا شأن هو اعتبار كتاب الله المعجز، فكتب الحديث، فالسيرة والتراث عمدة الأدب الإسلامي الحق في بلاغتها الصادقة، وأسلوبها الروحي السامي الذي يخلق بالمتلقي من ضيق الآداب الصناعية، وجور المعاني المبتذلة، وعبادة المادة والمعدة، إلى فضاء الطبيعة، والمعاني العالية، والإيمان والحنان، وإلى «الكون والحياة والإنسان والمصير بمدى أوسع، حيث يلتقي الوحي مع الوجود، والأسماء مع الشخصيات»^(١٠).

وثمة أمثلة رائعة جميلة يعرضها لنا الندوي على بساط كتابه مما كانت العرب العرباء يتكلمون بها، ويتفكرون بها في ضمائرهم، أو يحدثون بها على

فهو إذاً وضع في الاعتبار النقدي قانون الناموس الكوني، وسخر الأدب للقواعد الجارية المعمول بها، وأن الأدب العربي منها بمكان سائر الآداب



موائدهم، من لدن الرسول العربي - صلى الله عليه وسلم - مروراً بأبي حيان التوحيدي وعبد القاهر الجرجاني، إلى ولي الله الدهلوي وعلي الطنطاوي رحمهم الله.

ويرجع السر في فضل هذه الكتابات العلمية والدينية وتأثيرها وقوتها وجمالها إلى «أن هذه الكتابات قد كتبت عن عقيدة وعاطفة، وعن فكرة واقتناع، وعن حماسة وعزم»^(١٢).

إن سماحة الندوي يدعونا معه تدليلاً على ذلك إلى القراءة في كتابات الغزالي في «الإحياء» وفي «المنقذ من الضلال»، وإلى القراءة في خطب عبد القادر الجيلاني رحمهما الله، وما كتبه القاضي شداد عن صلاح الدين، وما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه الحافظ ابن قيم الجوزية في كتبهما، لنرى مثلاً رائعاً للكتابة العالية، وللأدب الحي الخليق بالبقاء، «ولا سبب لذلك إلا أنه كتب عن عقيدة وعاطفة»^(١٣).

عامل الطبيعة وعدم التكلف:

عامل آخر لدى أديبنا الإسلامي الرائد يمكن أن نسميه «عامل الطبيعة»، ومن قرأ مقدمة كتابه شهد أنها كأنما سيقت لتعزيمه، وللقضاء على مذهب

الصناعة والتكلف، وتحرير هذا الأدب المسكين من ربة الظلم التي طالما طوقته في قرون الانحطاط الفكري والخلقي والاجتماعي



عبد القاهر الجرجاني



«وحرمته مادة غزيرة من التعبير وباعثاً قوياً للتفكير»^(١٤)، ومن هنا يدخل الندوي بدوره المكتبة العربية، ليبرز منها الآداب في صورتها الحقيقية، إنها قطع ونصوص منثورة في كتب الحديث والسيرة، والتاريخ، وكتب الطبقات

والتراجم والرحلات، وفي الكتب التي ألفت في الإصلاح، وكتب الوعظ والتصوف، وفي الكتب التي سجل فيها المصنفون خواطرهم وتجارب حياتهم، وملاحظاتهم وانطباعاتهم، ورووا فيها قصة حياتهم»^(١٥).

ويخيل للذين اطلعوا على مختارات الندوي كأنما يأخذ الرجل بيده مصباحاً من نور يوجهه في غياهب التراث، ينبش منه الخير الكثير والأدب الجم.

ولكن هذا الاندفاع للمذهب الطبيعي، وهذه القناعة العميقة للأدب الحقيقي، وهذه الرحلة الاستطلاعية في آثار الأدب المسترسل الجاري مع الطبع، كل هذا لم يقل عند الأديب الناقد العادل من أهمية الأدب الصناعي، ولم يهون من مكانة مقامات الهمداني والحريري، ورسائل الخوارزمي، إن هذه «الطريقة الخلدونية» التي شد الندوي أزرها، ونصرها بشهود من أرض الواقع والتاريخ، لم تأت على حساب «الطريقة الفاضلية»، أو الصناعية، حتى يقصوها عن مسرح الاعتبار أصلاً، كل ما يريده أستاذنا الناقد باتجاهه المتزن أن الأدب الصناعي ليس هو الأدب كله، وليس من الحق أن يرفع عن

مستواه الذي يجب أن يكون عليه، وعن قيمته التي لا تجحد.

إن الندوي - على كل علاقاتها - يعترف «بقيمتها اللغوية والفنية، ويعتقد أنها مرحلة طبيعية في حياة اللغات والآداب»^(١٦) فخير لنا أن نعطيها حظها من العناية والدراسة، ونضعها في مكانها الطبيعي في تاريخ الأدب وطبقات الأدباء، ولكنه لا يحسن تمثيل أدبنا العالي الذي هو من أجمل آداب العالم وأوسعها.

هذا ما يدعو إليه العلامة أبو الحسن الندوي رحمه الله في نهاية المطاف: «أن نقب في المكتبة العربية من جديد، ونعرض على ناشئتنا وعلى الجيل الجديد نماذج جديدة من الكتب القديمة

للأدب العربي، حتى يتذوق جمال هذه اللغة، وينشأ على الإبانة والتعبير البليغ، ويتعرف هذه المكتبة الواسعة، ويستطيع أن يستفيد منها»^(١٧).

ويقرر أن نفس الأساس، وذات الفكرة، مما دعاه إلى إضافة جديدة إلى خضم المختارات الأدبية، حتى جاء منه هذا الكتاب الذي «يجمع بين الطبيعي والفن» لكل قيمة أدبية، ويجمع بين القديم والحديث، وما أحسن أدباً جمع بين القديم فالمتوسط فالحديث! علاوة على أنها بكل ما فيها تسد لنا الفراغ الذي فغراه من جراء «ضياع جيد المنشور» على حد تعبير الرقاشي^(١٨)، ناهيك رواية كعب بن مالك - رضي الله عنه - ذات

الدلالات البلاغية العالية، وقصة عائشة - رضي الله عنها - مما يتناقله الكتاب بين دفتيه بكلا جزأيه مما يعمد فيها الندوي إلى خير ما كتب، وما وصلته يداه في القديم والجديد وما بينهما، يكاد يشكل سائر ألوان الكتابة، وبالتالي يستجمع كل خصائصها ومقوماتها، والحاجة إلى بلورتها التحليلية باقية ندخرها لفرصة لاحقة، ليكون موضوعاً بمفرده إن شاء الله، وهكذا فإن الندوي يناول المتلقي مفتاحاً، يفتح به بعد ما شاء أن يفتح من فن أو علم أو ثقافة، بلغته، وأسلوبه وأدبه، بل وليضعه على أفعال المكتبة العربية بما فيها، فيفعل فيها الأفاعيل، ويصنع التاريخ! ■

الهوامش:

- (١) نظرات في الأدب العربي، (ص: ٢١) رابطة الأدب الإسلامي، ومختارات من أدب العرب، (ص: ٧) طبع دار ابن كثير، بيروت.
- (٢) ذكريات علي الطنطاوي، مقدمة مختارات من أدب العرب، (ص: ٥) طبع دار ابن كثير، دمشق، بيروت.
- (٣) د. عماد الدين خليل، محاولات جديدة في النقد العربي المعاصر، (ص: ٧).
- (٤) د. بنت الشاطئ، قيم جديدة في الأدب...، طبع دار المعارف، (ص: ٢٢-٢٤).
- (٥) د. محمود حسن زيني - مقالة: محمد بن سلام الجمحي، مجلة البحث العلمي، مكة المكرمة: العدد الرابع عام ١٤٠١هـ (ص: ٢٦٣).
- (٦) مختارات من أدب العرب للشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله.
- (٧) علي الطنطاوي، فصول في الثقافة والأدب، (ص: ١٩٩) دار ابن حزم، دار المنارة.
- (٨) د. عماد الدين خليل... مقدمة السيرة النبوية للشيخ أبي الحسن الندوي.
- (٩) د. عماد الدين خليل... مجلة الأدب الإسلامي، الصفحة الأخيرة، (١٧) المرجع السابق.
- (١٠) المرجع السابق.
- (١١) مقدمة المختارات للشيخ أبي الحسن الندوي، (ص: ٧) طبع ابن كثير، نظرات في الأدب العربي... المقال الأول، (ص: ٢١) رابطة الأدب الإسلامي.
- (١٢) المرجع السابق.
- (١٣) المرجع السابق.
- (١٤) المرجع السابق.
- (١٥) المرجع السابق.
- (١٦) المرجع السابق.
- (١٧) المرجع السابق.